خليقة أموية

تميزت لبني أمية في الجاهلية وصدر الإسلام وخلائق عامة يوشك أن تسمى لعمومها بينهم - خلائق أموية، وهي تقابل ما نسميه في عصرنا بالخلائق الدنيوية أو النفعية، ويراد بها أن المرء يؤثر لنفسه ولذويه ولا يؤثر عليها وعليهم في مواطن الإيثار.

وهذه الخلائق أعون لنا على التعريف بمعاوية من الخلائق التي ينسبها إليه المادحون والقادحون، لأن المادحين والقادحين قد يصدرون عن غرض، وقد ينوون الصدق، ولكنهم يخطئون في أمر الرجل الواحد، أما الأخلاق التي تعم قبيلا بأسره في أجيال متتابعة فهي أصعب تلفيقا على الملفقين، وأصعب خطأ على المخطئين، فإن الإجماع على الخطأ نادر في أخبار الناس كالإجماع على الصواب.

وهذه الخلائق الأموية دنيوية نفعية كما قدمنا، تميل بالمتخلقين بها إلى مناعم الحياة وتحبب إليهم العيش الرغد والمنزل الوثير[١]، وتغريهم بالنعم واللذات يغدقونها على أنفسهم وعلى الأقربين، فهي عندهم قسطاس البر بمن يحبون كما يحبون.

وقد عرف خيارهم، دينا وصلاحا، بهذه الخلائق الأموية كما عرف بها كثيرون منهم لم يشتهروا بدين ولا صلاح.

فما عرف من بني أمية أحد أصلح من عثمان بن عفان وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما.

وما تكلم متكلم عن هذين العلمين الرفيعين من بني أمية فاستطاع أن يسكت عما طبعا عليه من حب النعمة ووجاهة الدنيا على أحسن ما يروي عن الأمويين.

كان عثمان رضي الله عنه يقول عن نفسه كما جاء في كتاب الرياض النضرة: « كنت رجلا مستهترا[٢] بالنساء» وكان استهتاره بهن أن يكثر من الزواج.

وحب عثمان لاتخاذ المباني والعمائر مشهور، وحبه لاختصاص ذوي قرباه وإغداق النعمة عليهم مشهور كذلك، وكله مما أحصاه عله الثائرون ووجدوا فيه متسعا للتزيد والادعاء.

---

[١] الوثير: الوطيء اللين من الفرش.

[٢] مستهتراً: استهتر الرجل: اتبع هواه فلا يبالي بما يفعل، وبفلانة: أولع بها فلا يبالي بما قيل فيه لأجلها.

وعاش بعد الإسلام محبا للطعام الدسم والصحاف المنتقاة، فحدث عمرو بن أمية الضمري عنه قال: « إني كنت أتعشى مع عثمان خزيرة من طبخ من أجود ما رأيت فيها بطون الغنم، وأدمها اللبن والسمن، فقال عثمان: كيف ترى هذا الطعام؟ .. فقلت: هذا أطيب ما أكلت قط. فقال: يرحم الله ابن الخطاب، أكلت معه هذه الخزيرة قط؟ قلت: نعم فكادت اللقمة تفرث من يدي حين أهوي بها إلى فمي، وليس فيها لحم، وكان أدمها السمن ولا لبن فيها. فقال عثمان: صدقت !إن عمر رضي الله عنه أتعب والله من اتبع أثره، وإنه كان يطلب بثنيه –أي منعه –عن هذه الأمور ظلفا –أي غلظة –في المعيشة، ثم قال: أما والله ما آكله من مال المسلمين ولكن آكله من مالي. وأنت تعلم أني كنت أكثر قريش مالا وأجدهم في التجارة، ولم أزل آكل الطعام ما لان منه، وقد بلغت سنا، فأحب الطعان إليّ ألينه».

وقد كان عثمان أسرع قومه إلى الإسلام سباب بيناها في كتابنا «ذو النورين». وإنما حسب له الإسراع إلى الإسلام حيث حسب الإبطاء والتقاعد عنه للأكثرين من بني أمية، على ديدنهم في كل دعوة من دعوات المثل العليا أو دعوات الأريحية والإيثار، ولا موضع هنا للإطالة في نقل أخبار المنافرات والمفاخرات التي تلم بهذا المعنى، ولكننا نجملها جميعا في موقف القوم من حلف الفضول وهو مشروح بتفصيلاته التي لا يشك فيها من يشكون في تلك المنافرات والمفاخرات، فقد ظلم رجل في جوار الحرم وباع بضاعة لواه بحقها من اشتراها فاستغاث بذوي المروءة وقام على شرف[1] من الأرض يعلن شكواه، فاجتمع بنو هاشم، وبنو أسد، وبنو زهرة، وبنو تيم على إنصافه وإنصاف كل مظلوم مثله، فلا يظلم بمكة غريب، ولا قريب، ولا حر، ولا عبد، إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم، وعمدوا إلى ماء من زمزم فجعلوه في جنفة[2] وبعثوا به إلى البيت فغسلت به أركانه وشربوه، ولم يدخل في هذا الحلف أحد من أمية وبني عبد شمس، بل كان الرجل منهم يود أن يدخله فيخشى أن يحسب

---

[1] شرف: المكان العالي.

[2] جفنة: القصعة.

خارجا على قومه، وقال أحدهم -عتبة بن ربيعة - لو أن رجلا وحده خرج على قومه لخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف الفضول.

***

وهذه الخلائق الأموية وضحت في الجاهلية وصدر الإسلام وضوحا لا لبس فيه قبل أن تلتبس الأنساب ويكثر الزواج من غير العشيرة، والبناء بالجواري من الروم والفرس والترك والبربر، ولكنها ظلت أموية حيث تغلب الأموية في الدم والنشأة والقدوة والجوار.

فعمر بن عبد العزيز -أشبه الملوك في دولة بني أمية بالخلفاء الراشدين -كان كما جاء في أسانيد ابن الجوزي: "رأيته في المدينة وهو أحسن الناس لباسا ومن أطيب الناس ريحا، ومن أخيل[1] الناس في مشيته، ثم رأيته بعد ذلك يمشي مشية الرهبان".

واتفق الرواة كابن عبد الحكم والأصفهاني وابن الجوزي في أطراف من أسانيده، أنه كان يتطيب في شبابه فينتظر الناس ثيابه عند الغسال ليغسل لهم في موضعها، وأنه كان يرجل شعره ويتبختر في مشته حتى عرفت مشة عمرية يحكيها الفتيان والفتيات، وكان يتختم بالجواهر ويلبس الإزار بمائة دينار ولا يُرى مرتين في كساء واحد، وربما تأخر في صباه عن موعد الصلاة لاشتغاله بترجيل[2] شعره. وسأله مؤدبه صالح بن كيسان مرة عن تأخره وهو ينتظره لإقامة الصلاة فاعتذر له بإبطاء مرجلته -أي الجارية التي تعني بترجيل شعره -فغضب المؤدب الصارم ولامه أن يغفل عن موعد صلاته ليعني بتسكين شعره.

وما برح الخليفة الصالح في نصب من أمر عاداته هذه حتى أقلع عنها بعد جهد، وآب من ترف المسرفين إلى نسك المتزمتين، وقيل: إنه ترف من بني أمية ونسك من الفاروق، لأنه ينتمي من ناحية أمه إليه.

---

(١) أخيل: أكثرهم عجباً وكبراً.

(٢) ترجيل: رجل الشعر: سرحه.

وعلى هذا الجهد بقيت معه تلك المشية تعاوده ولا يأمن أن يسهو عن نفسه فيثوب إليها في طريقة، فجعل له قرينا يلازمه ويصفقه بيده كلما هم أن يثوب إليها.

***

ولا ننسى أن بني أمية عشيرة عربية كبيرة قد تتميز بخلائقها الأموية، ولكنها لا تنفصل عن المجتمع العربي ولا تشذ عن عرفه التقليدي الذي ترعاه جميع العشائر الكبرى ولو من قبيل المحافظة على المراسم والأشكال، ومن تقاليد هذا العرف أن تروض بيوت الرئاسة أبناءها على نظام كالنظام العسكري، في صباهم وبعد بلوغهم مبلغ الشباب الذي يندب للقتال أو لتصريف الأمور، وسواء اختاروا البادية لتدريب الأبناء على هذه الرياضة أو عهدوا بها إلى المربين في المدن والدور فلا ينشأ الناشئ منهم إلا على رياضة من هاتين الرياضتين، وكذلك فعل عبد العزيز بن مروان في تربية ابنه عمر فاختار له المؤدب الذي يثقفه ويأخذه بفرائض دينه ودنياه، ولما بلغه من هذا المؤدب - صالح بن كيسان -أن الفتى الصغير يتأخر عن موعد الصلاة لاشتغاله بترجيل شعره أرسل إليه من قبله رسولا خاص، فأمره ألا يكلمه حتى يقص شعره ويبلغه غضب أبيه، ولا نحسب أن أحدا من رؤساء البيت غفل عن مثل هذه الرياضة في تنشئة بنية، ولكنها رياضة تنتهي إلى القدوة البيتية فلا يبقى لها من أثر ولا يبقى لها إلا الأثر الضعيف. وكان عبد العزيز يعاقب عمر ذلك العقاب وهو ينزع في الترف منزعا لا يستطيع ابنه - وإن أسرف -أن يذهب إلى مدى أبعد من مداه، فاقتنى الدور في مصر وجملها بالأثاث الفاخر، وجعل يهديها إلى ابنائه وذويه، واشترى أرض حلون بعشرة آلاف دينار ليقيم عليها قصره المنيف الذي موه جدرانه بالذهب وأنفق على فراشه وأثاثه عشرات الألوف، وكان له ك يوم ألف جفنة للقرى بدار الضيفان وكانت أيامه كلها كأنها أيام أعياد كما جاء في معجم البلدان:

كل يوم كأنه عيد أضحى ... عند عبد العزيز أو يوم فطر

وله ألف جفنة مترعات ... كل يوم يمدها ألف قدر

***

وشهد هذا البذخ كله عمر وتقلب بين أعطافه، فلو عرق من الفاروق أدركه؛ لما تحول من هذا البذخ إلى النسك الذي ضارع به أزهد الخلفاء الراشدين.

وليس عبد العزيز ذ على هذا ذ بالمثل الذي يقال عنه: إنه « نموذج « للخليفة الأموية في الكلف بالنعمة الدنيوية والعجب بالزينة والشارة[١] وبالقسامة[٢] والوسامة، بل كانت هذه الخليقة على أتمها في سليمان بن عبد الملك أكلفهم بنعمة العيش حيث كانت في طعام أو كساء أو ترف أو سرف أو خيلاء.

كان نهما لا يشبع ولا يرجع الخوان من بين يديه وعله بقية، وكان يلبس الوشي على أفخر حلية وزينة ويحضر الطهاة بين يديه بالسفافيد عليها الدجاج والطير فلا يتمهل بها حتى تنضج، بل يلف يده في كمه ويتناولها من النار ويأتي عليها قبل أن تنقل إلى الصحاف، وربما صحبه عمر في السفر وهو صائم فلا يجد على المائدة فضل طعام إذا حان موعد الإفطار، وقد مات بالتخم مع إصابته بالحمى وهو في الأربعين وأبناؤه الصغار لا يصلحون لولاية العهد، فجعل ينظر إليهم وينشد:

إن بني صبية صغار أفلح من كان له كبار

وأمر وزيره رجاء بن حياة أن يعرضهم عليه في الخوذات والدروع لعله يخدع نفسه بمنظر صبي منهم يصلح لولاية الملك، فلم يجد منهم من يروعه أو يروقه في تلك الأزياء وأوصى بولاية العهد على كره لعمر بن عبد العزيز.

قال ابن الجوزي في سيرة عمر بإسناده: إن سليمان بن عبد الملك كان ربما نظر في المرآة فيقول: أنا الملك الشاب.. وكان جالسا فنظر في المرآة إلى وجهه فأعجبه ما رأى من جماله فقال: أنا الملك الشاب، وكانت على رأسه وصيفة فقالت:

أنت نعم المتاع لو كانت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان.

ويروي هذا البيت في أسانيد أخرى ومعه البيت التالي:

ليس فيما بدا لنا منك عيب عابه الناس غير أنك فات

---

[١] الشارة: الهيئة واللباس الحسن.

[٢] القسامة: الجمال والوسامة.

ودخل عليه المفضل بن المهلب يوم جمعة فرآه يدعو بالثياب ويلبس منها حلة بعد حلة ويتخايل بها أمام المرآة ثميخلعها، ويأتي بغيرها حتى ارتضى حلة منها فلتفت إلى المفضل سائلا: يا بن المهلب.. أعجبتك؟ قال المفضل: نعم فحسر[1] عن ذراعيه وهو يقول: أنا الملك الفتى.

هذا هو الأموي من الأمويين، وغيره منهم يشبهه في كل خصلة من هذه الخصال على درجات، ومنهم معاوية رأس الدولة وأقربهم إلى[2] الميراث..

كان في معاوية كل خصلة من خصال سليمان بن عبد الملك ولكنه لم يسترسل فيها كما استرسل سليمان مع تطاول الزمن بعد قدوة النبوة والخلافة الأولى خلافة الراشدين.

جاء في الطبري أنه كان يأكل في اليوم سبع مرات بلحم، ويقول: "ولله ما أشبعوإنما أعيا".

ولم يروها الطبري وهو يشهر بها، بل رواها وقال بعدها: "وهذه نعمة ومعدةيرغب فيها كل الملوك".

وسبق الطبري هذا الخبر بتعليل لهذه النهمة من دعوة رسول لله عليه في صباه ...فمن أخبار الإمام أحمد المسندة إلى ابن عباس أنه قال: "كنت ألعب مع الغلمان فإذا رسول لله قد جاء، فقلت: ما جاء إلا إلي، فاختبأت على باب، فجاءني فخطاني خطاة أوخطاتين، ثم قال: اذهب فادع لي معاوية. وكان يكتب الوحي، فذهبت دعوته له، فقيل:

إنه يأكل! فأتيت رسول لله، فقلت: إنه يأكل، فقال: اذهب فادعه، فأتيته الثانية، فقيل: إنه يأكل، فأخبرته، فقال في الثالثة: لا أشبع لله بطنه ... فما شبع بعدها".

ولم يزل بعد الإمارة يفُرِط في مأكله من اللحوم والحلوى والفاكهة حتى ترهل[3] وعجز عن القيام طويلًا، فكان يخطب على المنبر وهو جالس، وكان أول من جلس في خطبة منبرية.

***

---

[1] حسر: كشف.

[2] أرومة: أصل الشجرة، ويستعار للحسب

[3] ترهل: استرخى لحمه وصار في انتفاخ.

وشُغِف بالاكسية كما شُغِف بالأطعمة، فلبس الحرير وتختم بالذهب والجوهر، وولع بالثياب المزخرفة والموشاة، وتزين بالزينة التي كرهها الإسلام لعامة الرجال فضلًا عن الخلفاء والأمراء، وكان لا يملك أن يترك الزينة بالكساء في صدر الدعوة والخلافة، وفي الزمن الذي كان يتحرج فيه من إغضاب ولي الأمر، وهو عمر بن الخطاب.

قال عبد لله بن المبارك في كتاب الزهد كما رواه الطبري: "قدم علينا معاوية وهوأبيض بض[١] وباص[٢] أبض الناس وأجملهم، فخرج إلى الحج مع عمر، فكان عمرينظر إليه في عجب منه، ثم يضع أصبعه على متن معاوية ثم يرفعها عنه مثل الشراك، فيقول: بخ بخ، نحن إذن خير الناس أن جُمِع لنا خير الدنيا والآخرة"- فقال معاوية: "ياأمير المؤمنين! سأحدثك، أنا بأرض الحمامات والريف والشهوات".

فقال عمر: "سأحدثك أنا ... ما بك إلا إلطافك نفسك بألطف الطعام، وتصبحك حتى تضرب الشمس متنيكَ[٣] وذوو الحاجات وراء الباب؟ فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، علمني أمتثل، قال راويالخبر: فلما جئنا ذا طوى أخرج معاوية حلة فلبسها، فوجد عمر منها ريحًا كأنه ريح طيب، فقال: يعمد أحدكم فيخرج حاجا مقلا حتى إذا جاء أعظم بلدان لله حرمة أخرج ثوبيه كأنهما كانا في الطيب فلبسهما؟ فقال معاوية: إنما لبستهما لأدخل بهما على عشيرتي وقومي، قال عمر: ولله لقد بلغني أذاك هنا وفي الشام".

وزاد راوي الخبر، فقال: "ولله يعلم إني لقد عرفت الحياء فيه، ثم نزع معاوية ثوبيه ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما".

وروى عمرو بن يحيى بن سعيد الأموي عن جده قال: "دخل معاوية على عمروعليه حلة خضراء، فنظر إليها الصحابة، فلما رأى ذلك عمر وثب إليه بالدرة[٤] فجعل يضربه بها، وجعل معاوية يقول: لله لله فيَّ يا أمير المؤمنين، فرجع عمر إلى مجلسه، فقال له القوم: لم

---

[١] بض: الرقيق الجلد الممتلئ.

[٢] وباص: لامع، براق.

[٣] متنيك: المتنان جانبا الظهر.

[٤] الدرة: بكسر الدال المشددة: سوط يضرب به.

ضربته يا أمير المؤمنين، وما في قومك مثله؟ فقال: ولله ما رأيت إلاخيراً وما بلغني إلا خير، ولو بلغني غير ذلك، لكان مني إليه غير ما رأيتم، ولكن رأيته- وأشار بيده - فأحببت أن أضع منه ما شمخ".

ولم يكن زهوه بسمته، وسماته دون زهو سليمان، فكان يصفر لحيته كأنها الذهب ...وقد أصابته لوقة في آخر عمره - وهي كأثر الضربة في الجلد - فكان يستر وجهه، ويقول: "رحم لله عبدًا دعا لي بالعافية فقد رميت في أحسني، ولولا هواي في يزيد لأبصرت رشدي". وهواه في يزيد لون من ألوان هذه الخلة الأموية، فكل الآباء يحبون الأبناء ... ولكنَّ القوم لا يحسبون الأب بارا بأبنه إلا إذا "نعمه"، أو شغل بتنعيمه فيما ينظر فيه الآباء من رغد أبنائهم، وفيما يتركونه لهم ويتغاضون عنه كأنهم يجهلونه، وقد أرسل معاوية ابنه يزيد إلى بادية بني كلب أخوالِهِ، ليتربى بينهم على الفروسية والبلاغة العربية، ولكنه فعل ذلك كأنما يفعله قيامًا بما تقتضيه مراسم السلف ولم يتبعه بما هو ألزم ليزيد من ضروب التربية والرياضة على كبح الأهواء، ولا سيما الهوى الذي ينظر إلى حرمات الناس وأعراض الرعاية، فقد علق يزيد بزوجة عبد لله بن سلام زينب بنت إسحاق، ومرض بحبها مرضًا أدنفه، فاحتال أبوه حتى عرف سر مرضه من خصيان القصر، فأرسلفي طلب أبي هريرة وأبي الدرداء، فقال لهما: إن لي ابنة أريد زواجها ولا أرضى لها حليلًا غير ابن سلام لدينه وفضله وشرفه، فانخدع ابن سلام وذهب إلى معاوية يخطب بنته، وقيل: إن معاوية وكَّل الأمر إلى أبي هريرة، ليبلغها ويستمع جوابها، فأجابته بما اتفقت عليه مع أبيها وقالت له إنها لا تكره ما اختاروه، ولكنها تخشى الضرة وتشفق أن يسوقها إلى ما يغضب لله، فطلق ابن سلام زوجته واستنجز معاوية وعده فلواه به، ونقل إليه عن ابنته أنها لا تأمن رجلًا يطلق ابنة عمه وأجمل نساء عصره!...

وكأنما كان معاوية مهمومًا بشهوات ولده في زواج أو غير زواج، فقد حدث ابن عساكر من ترجمة خديج الخصي أن معاوية اشترى جارية بيضاء جميلة، فأدخلهاالخصي عليه مجردة، وبيده قضيب، فجعل يهوي به على جسدها، ويقول: هذا المتاع لوكان لنا متاع، اذهب بها إلى يزيد ثم قال: ادع لي ربيعة بن عمر الجرشي - وكان فقيهًا- فلما دخل عليه قال: إن هذه أتيت بها مجردة فرأيت منها ذاك وذاك، وإني أردت أن أبعث بها إلى يزيد، فقال الجرشي: لا تفعل يا

أمير المؤمنين، فإنها لا تصلح له. فقال معاوية: نعم ما رأيت! ثم وهبها لعبد لله بن مسعدة الفزاري مولى فاطمة بنت رسولالله، وكان أسود، فقال له: بيِّض بها ولدك "...

***

ونعود فنقول: إن الطبري يسند هذه الأخبار إلى أصحابها، ولا يسوقها مساق التشهير، لأنه اتخذ من هذا الخبر دليلًا على فقه معاوية، فقال: "وهذا من فقه معاوية وتحريه، حيث كان نظر إليها بشهوة، ولكنه استضعف نفسه عنها، فتحرج أن يهبها لولده يزيد، لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تنكِحُوا مَا نكَحَ آبَاؤُكُم منَ النِّسَاءِ﴾، وقد وافقه على ذلك الفقيه ربيعة بن عمر الجرشي الدمشقي ..."

وما من تربية ليزيد تصلحه للخلافة بعد هذا "التنعيم" الذي يملي له في شهواته، وهو مقدم على رئاسة قريبة عهد بابن الخطاب بل بابن عفان، فإن الخليفة الثالث- رضي لله عنه - قد أجاز لنفسه من المتعة الدنيوية ما لم يجزه الفاروق، ولكنه لم يحدث نفسه قط باقتناء الخصيان والجواري على سنة القياصرة والشواهين، ولولا تلك الخليقة الأموية التي تمادى بها اتساع الملك في أهوائها وغواياتها، لما فات رجلًا - وسط الذكاء - أن هذه التربية لا تعد إنساناً لحياطة الملك المنتزع بالحيلة والحول، قبل استقرار الأمور بين مطامع الأقرباء من العشيرة فضلًا عن الغرباء.

***

وكان معاوية ينازع طبعه بين الخليقة الأموية وبين آداب الدين الذي يتولى خلافته، فينزل بنفسه درجات دون منزلة الخلفاء الراشدين، لافتتانه بالدنيا واستسلامه لغوايتها، وله أكثر من كلمة في هذا المعنى يقول في بعضها: "إن أبا بكر سلم من الدنيا وسلمت منه، وعمر عالجها وعالجته، وعثمان نال منها ونالت منه، أما أنا فقد تضجعتها ظهراً لبطن وانقطعت إليها فانقطعت لي "... ويقول في بعضها من خطبة بالمدينة: "إن أبابكر - رضي لله عنه - لم يرد الدنيا ولم ترده، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها، وأما عثمان فنال منها ونالت منه، وأما

أنا فمالت بي وملت بها، وأنا ألبنها[1] فهي أمي وأنا ابنها، فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم".

وكأنما كان يشهد على نفسه هذه الشهادة تواضعًا من جهة، وتزكية لقدرته على الملك الدنيوي من جهة أخرى، فإن كان الرعية لا يرتضونه قدوة للصلاح والتقوى، فهم مرتضوه مدبرًا لشئونهم وقائمًا على مصالح دنياهم.

ويشعر معاوية بالمنازعة بين الخليقة الأموية وآداب المروءة العربية، كما يشعربالمنازعة بينها وبين آداب الدين، فإن طالب السيادة يكره أن ينزل في منزلة دون منازل الشرف والكرامة بين قومه، فإن لم يكره ذلك حبًّا للخلق المأثورة فلعله يكرهه حبًّا لنفسه، وغيرة على سيادته وعلوه في نظر المكبرين لآداب المروءة، سواء تحلوا بها أوتجردوا منها.

ومن نوادر معاوية في هذه المنازعة المتكررة بين خلائق عشيرته، وآداب العرب عامة أنه جلس يومًا مع خاصته يسألهم فيما بقي له ولهم من لذات الحياة بعد ذهاب الشباب، فإذا هي عنده لذات لا تعدو مذاق الشراب السائغ وسروره بالنظر إلى بنيه، ثم نبهه منبه إلى إسفافه هذا، فانتبه ولم يكابر طبعه، لأن الأمر وراء المكابرة بإجماع العرف وإجماع الدين.

روى الواقدي أن عمرو بن العاص "دخل يومًا على معاوية بعدما كبر ودق ومعه مولاه وردان، فأخذا في الحديث وليس معهما أحد غير وردان، قال عمرو: يا أمير المؤمنين!ما بقي مما تستلذه؟ فقال: أما النساء فلا أرب لي فيهن، وأما الثياب فقد لبست من لينها وجيدها حتى وهى بها جلدي فما أدري أيها ألين، وأما الطعام فقد أكلت من لذيذ هو طيبه حتى ما أدري أيه ألذ وأطيب، وذكر مثل ذلك عن الطيب وغيره من مناعم الحياة، ثم قال: فما شيء ألذ عندي من شراب بارد في يوم صائف، ومن أن أنظر إلى بني وبني بني يدورون حولي.

وعطف معاوية سائلًا: فما بقي منك يا عمرو؟

قال عمرو: مال أغرسه فأصيب من ثمرته ومن غلته.

فالتفت معاوية إلى وردان، فقال: ما بقي منك يا وردان؟

---

[1] ألبنها: لبن يلبن الراعي الغلام: سقاه اللبن.

قال وردان: صنيعة كريمة سنية أعلقها في أعناق قوم ذوي فضل واصطبار لايكافئونني بها حتى ألقى لله تعالى، وتكون لعقبي في أعقابهم بعدي.

فقال معاوية: "تبًّا لمجلسنا سائر اليوم ... إن هذا العبد غلبني وغلبك "...

خليقة أموية عربية، مضى الرجل على سجيته فلم يخطر له أن يستبقي من متاع الدنيا الذي عجز عنه إلا شيئاً يذاق، وشيئاً يسره من النظر إلى ذريته، ثم نبه المنبه إلى المكرمات المأثورة فلم يجحدها ولم يعزب عنه حميد أثرها.

وإن شئت فقل: خليقة أموية وكفى ... فإن من أثرة ما يوحي إلى صاحبه ألا ينزل طواعية عن مأثرة يرتفع بها غيره، ولا يسعه أن ينكرها.

وهكذا كانت الخليقة الأموية مع المروءة العربية في كل مأثرة محمودة بين عشائرالعرب الكبرى، وبين العرب خاصة وعامة، وأولها مناقب الشجاعة والكرم والنخوة، فما كان في وسع بني أمية أن يغمضوا أعينهم عن هذه المناقب، ولا أن يصغروا من حقها، ولكن التسليم للمنقبة شيء والجهد في تحصيلها شيء آخر ... ولهذا مضى تاريخ بنيأمية في الجاهلية وليس بينهم واحد معدود حين يعد العرب فرسانهم المقدمين وأجوادهم المشهورين، وذوي النجدة من صفوة عشائرهم ونخبة ساداتهم، وظهر فيهم الشجعان في صدر الإسلام كيزيد بن أبي سفيان، وهو أخ غير شقيق لمعاوية، ولكنه لا يحسب عندهم ولا عند غيرهم من فرسان هاشم في جيل واحد، كعلي وحمزة.

وسُئِل معاويةُ نفسُهُ، وسائلهُ عمرُو بنُ العاص: ولله ما أدري يا أمير المؤمنين، أشجاع أنت أم جبان؟ فقال:

شُجَاعٌ إذا ما أمَكَنتني فرصةً
فَإنْ لَمْ تَكُنْ لي فرصةٌ فجَبَان

***

ولم يؤثر لمعاوية موقف واحد يحسب من مواقف الشجاعة البينة، بل حسب عليه أنه كان يأوي إلى قبة يحيط بها الحراس في معارك صفين، وأنه أسرع إلى فرسه في ليلة الهرير لينجو

بحياته، ثم هدأ الخطر بعض الشيء، فراجع نفسه وتراجع إلى مكانه وهوآمن من عاقبة هذه الرجعة، بعد أن خفت الهجمة على موضعه من ميدان القتال.

وليس من أخبار بني أمية في الجاهلية وصدر الإسلام خبر واحد ينفي عنهم هذه الخليقة الغالبة عليهم جميعًا من الأثرة، والكلف بالمناعم الدنيوية، وتقديمها على غيرها من مناقب الإيثار والمثل العليا.

وبهذه الخليقة يفُسر كل عمل من أعمال معاوية على انفراده بينهم بصفات من الحزم لم يشتهروا جميعًا بمثلها، وهو مع حزمه "الدنيوي" هذا لم يصطدم بالخليقة الأموية إلا وهن منه الحزم في هذا المصطدم، فكان من الحزم ألا يتوسع في أبهة الملك أوأبهة "الهرقلية والكسروية"، كما كان المسلمون يسمونها في صدر الإسلام، ولكنه لم يكديملك حتى صنع ما يصنع القياصرة والأكاسرة من اقتناء الخصيان والجواري، والتوسع في بذخ القصور والقدور، وكان من الحزم أن يروض يزيد على كبح الشهوات، فلم يكد يسمع أنه اشتهى امرأة في عصمة رجل حتى احتال حيلته لإمتاعه بما اشتهى، وإن النهازين من مؤرخي العصر القديم ليفسرون صلاته الجامعة في المقاصير[1] بخوفه من الغيلة بعد مؤامرة الثلاثة التي قُتِل فيها علي رضوان لله عليه، ولئن صح هذا لما نفي عنه تلك الخليقة الأموية التي تلوذ بالحيطة، حيث لا يلوذ بها المبرأون منها، فقد قتل عمر وعلي ولم يلجأ الحسن أو الحسين إلى المقاصير أو إلى الحرس الميسر لهما وهو غيرقليل، وقد كانت أبهة المواكب من دأب معاوية، إذ كان - بعد - على ولاية الشام من قبل الفاروق، فلما رآه الفاروق في موكبه أعرض عنه، ثم عنفه وسأله عن اتخاذ المواكب مع احتجابه عن ذوي الحاجات، فاعتذر له بموقعه من بلاد العدو، ودأب على اتخاذ المواكب، وتسيير الجند بين يديه قبل أن يخشى غيلة من مغتال.

عند هذه الخليقة الأموية تفسير الكثير مما جهله المؤرخون الأقدمون أو تجاهلوه، ولا سيما المؤرخين النهازين من المنتفعين أو المتطوعين.

---

[1] المقاصير: جمع مقصورة وهي غرفة من غرف الدار، ومن المسجد مقام الإمام، وغرفة صغيرة مرتفعة.